

## دواليب الهوا

....

موضوع مسرحيتنا "دواليب الهوا" صورة واقعية من حياة مجتمع قرية احتكر إقطاعي فيها زراعة الزيتون وسيطر على بساينها الخصبة تاركاً لأهلها الفقراء حقول القصب التي تنحصر الحاجة إلى غلاله باستخدامات محدودة لا تزيد عن صناعة السلال وإقامة السياج حول البساتين. هذا الواقع الذي شكّل فيه أهالي القرى التي سيطر عليها الإقطاعيون حشودَ المضطهدين والمظلومين كان مادة للإبداع الأدبي والفني في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. كانت الإقطاعية طيلة قرون الاحتلال العثماني قمعية وإرهابية لدرجة كُمت معها أفواه الناس وكان مصير من تُسوّل له نفسه الاحتجاج على سوء المعاملة أو الطغيان السجّن والتعذيب وربما الموت.

تأتي هذه المسرحية بعد أربع مسرحيات متميزة استعرض الرحابنة من خلالها فلسفتهم الحياتية وقدراتهم الإبداعية واستشفوا مدى تفاعل جمهورهم مع الشكل والمضمون من خلال جدلية المسرح والموسيقا. لم يكن المسرح اللبناني قد تكون بعد كما أنه لم تكن في لبنان ولا في سوريا موسيقا صرفة، ربما للّبون الثقافي الشاسع الذي كان يفصل البيئة الشرقية عن الغرب. وكان على الرحبانيين، كرائدين، التوفيق بين حاجتين لاتقل إحداهما أهمية عن الثانية. وفي حين برز الاهتمام في بعض الأعمال بالنص المسرحي والتمثيل على حساب الموسيقا والغناء فقد كان العكس في أعمال أخرى حين بهت النص، بالمفهوم المسرحي الصرف، لحساب الحصة الغنائية وموسيقاها.

....

النص الغنائي الرحباني له من الثراء ما يفوق أي نص مماثل وكلما اتسعت رقعته ازدادت قدرته التعبيرية.. وهو بقدر بساطته ذكي في الوصول إلى أعماق ثنايا المشاعر..

أهالي الضيع الفقيرة الرازحة تحت سيطرة الإقطاعية لا يجدون عن الالتصاق بالطبيعة بديلاً.. وبأبسط الإمكانيات قاوموا الفقر والجوع والتسلط والهيمنة وواجهوا سالمي تعبهم. ولم يمُت في نفوسهم حبّ الحرية والعدالة وعشق الطبيعة والأرض وخيرها. ولكونهم أصحاب نفوس طيبة تراهم يقدّرون كل شيء أنبتته الأرض. هاهم في أدب الرحبانيين يتغزلون ب الطيّن والحبق والمنثور وبشجر التوت والشيح والوزال والصفصاف وأنواع الزهور والفاكهة.. لقد كان الرحابنة منذ بداياتهم أفضل من عبّر عن حرص البشر الشديد على بيئتهم وأرضهم وعلى تعلقهم بهما.. من هنا جاءت التوأمة الجمالية بين الطبيعة والغناء عنصراً ذا خصوصية في عالم الإبداع الرحباني.

تبدأ حلا أغنيته بموأل: أوف أوف أوف أوف أوف

ياشجرة الدَّعْ دَنِي فَيَّاتِهَا عَلَيُّو  
طابَتْ وَعَزَّ الْجَنِي وَاصْحَابُهَا عَلَيُّو  
يا بِنْتُ يا مُؤَلَّدِنِي كُروم اللَّكُّنْ حَلِيو  
بلْكي بِييجي هَالسُنَّة ناطور البِنْيَّة  
وَمَا حَلِي الوَمَا بِالوَمَا وَمَا حَلِي العِزوبِيَّة

هذا الموال القصير المأخوذ من ذاكرة التراث الشعبي لا يتعدى كونه مقدمة عفوية لأغنية سريعة أريدَ بها تصويرُ حالة الفرح والتفاؤل الذي بعثه في نفوس الأهالي قرار حلا الجريء بيغ القصب للسمسار تحدياً لفهد المتربِّص بهم وكأنهم يؤكدون تضامنهم ووقوفهم خلف حلا وعدم انصياعهم لضغوط فهد ورفضهم شروطه.. هاهم مبتهجون ينتظرون السَّمسار لكي يعقدوا معه صفقة التحدي، يشكلون حلقة الدبكة السريعة وهاهي فتاتُّهم الحلوة تغني بأعلى صوتها: "عِنِّي يا مِنْجِيْرَة عِنِّي".. والمنجيرة هي واحدة من الآلات الموسيقية الشرقية غير المعدنية التي يعزف عليها بالنفخ وهي مصنوعة غالباً من القصب أو أنواع محددة من الخشب وصوتها يشبه الأنين في بعضه ويثير المشاعر الحزينة، لذا تخاطبها حلا "عِنِّي يا مِنْجِيْرَة" لتشاركها حزنها العميق.

....

تمهد الأوركسترا للأغنية مسلِّمة قائد الدبكة لحنها الحيوي السريع ومؤلفه فيلمون وهبي:

حلا: وَعِنِّي يا مِنْجِيْرَة عِنِّي العِنَّة بِضَهْر العِنَّة  
وَالْحَيِّيْتُو سَبْع سَنِيْنْ بِيْمِرُقْ مَا بِيْسْأَلْ عِنِّي  
الجوقة وحلا بالتناوب: عِنِّي يا مِنْجِيْرَة عِنِّي... (٣)

....

يعود الأهالي إلى منازلهم مطأطئي الرؤوس وعلامات الخيبة على وجوههم بينما تبقى حلا لوحدها ترقب الغروب والحيرةُ تكاد تنال من صوابها والحزن يغمر قلبها..

أما الموسيقى فهي رفيقة المشاهد المخلصة.. نوتات خافتة وهدوء يصور الشمس تودع القرية الحزينة و (حلا) تتساءل محتارة.. هل يمكن أن يكون جمالها ونضارة وجهها سبب مشكلتهم ومعاناتهم !! إذن ياريت..

يا رَيْتْ لا إِسْمِي حلا ولا نِّي حلا (٢)

ولا كان في عِنْدِي شَوِيَّة هالْحِلا  
ياهِمَّ إِسْمِي وَهَمَّ هالْحَالِة مَعِي  
كَيْفَ مَا بَعْمَل مَتَعَبَّنِي الحِلا

....

وبانتظار الانتقال إلى مرحلة تنفيذ خطة حلا المتعاونة مع البياع والمستندة إلى موافقة وتأيد أهالي الحارة يقدم لنا المخرج مشهد استراحة فكاوية أمام الأهالي يتراشق فيه أبو زينة مع زوجته، وبدخُل زينة، عبارات المداعبة إشارة إلى حالة الزهو التي وصل إليها أبو زينة بفضل كأس من الخمر اللذيذ تجرعه لتوه فانطلق يتفاخر بشبابه بعد جدل مع زوجته، سعُود التي يحلو له أن يصفها بالك (ختيار) (ختيار)

أبوزينة: مين قال مين أبو زينة شاب  
الرجال في الساحة: شو القصّة يا أبو زينة؟  
أبوزينة: أنا أرشّق من الديب أبو زينة ما بيثيب

أبو زينة الذي يحاول التظاهر بالشباب خاصة عندما تفعل الخمرة فعلها في رأسه يتباهى برشاقته أمام زوجته ويبدأ الإثنان رقصة جميلة ينشدُ إليها الجميع محولينها إلى دبكة حيوية تُغني (حلا) على لحنها واحدة من أجمل الأغاني وأكثرها حركية، تعبيراً عن حالة الفرح عند الجميع وهم يجمعون قصبهم الغالي على قلوبهم حاملينه إلى ورشة صنع دواليب الهوا.. وكان الأوركسترا تقوم بتوليف آذان وأذواق المشاهدين للانتقال المرن إلى الدبكة.

الدبكة تضجُ حيوية وتتلون بالتمايل والركوع والامتداد والشموخ وتتناغم بانسجام أخذ خبطات الأقدام مع إيقاعات الأوركسترا وتدحرج كلمات الأغنية الجميلة خالقة جواً من الحماس والجادبية:

حلا: يا خيل باللّيل اشتدّي ويا أرض ساعينا وهدي  
وان كان مافيكي تهدي  
انهدي انهدي انهدي انهدي  
الفرقة تعيد الكوبلة: يا خيل باللّيل اشتدّي..

....

البياع الذي ساقته الصدفة إلى الساحة التي مثل الحاجة إليه أهل حارتها بدلاً من أطفالها تجاوب مع تلك الحاجة بأريحية وسخاء وقدم خبرته بنبل وهو يعلم كم من السعادة سيجلب هذا السخاء إلى

أولئك الناس الطيبين.. أما وقد تعلّمت الفتيات كيفية صنع الدواليب والتفنّن بأوراقها الملونة بما يضمن رضى الأولاد وسعادتهم فقد انتهت مهمة البياع ولا بد له من حمل متاعه والرحيل مطمئناً، ولدى مغادرته يدور الحوار المنعم التالي في جوّ يكتنفه الشجن:

حلا بحزن: لَوَيْنَ يَا بِيَّاع

البياع: بَدِّي رُوح

حلا: كَيْفَ يَا بِيَّاع

البياع: لَازِمُ رُوح

قَلْبِي اشْتَقَ لِعَرْبَةِ الطَّرَقَاتِ اشْتَقْتُ لِدُنْيِ شُبَايِكُهَا جَدِيدَةَ  
اشْتَقْتُ أَوْقَفَ هَيْكَ بِالسَّاحَاتِ وَ أَحْمَلُ دَوَالِيِبَ الْهُوَ بِيَدِي

....

أما حلا فالأمر عندها مختلف.. لقد غيرها ظهور البياع وجعلها تنظر إلى الحياة بمنظار آخر يتكشف فيه بهاؤها ورقفتها وابتسامتها وجعلها تلبس الفساتين الحلوة وتتباهى بالغنج والدلال.. إنه الحب يابياً!!

للحب قدرة سحرية على التغيير. هكذا يصوره الأخوان رحباني. فمرهج القلاعي في مسرحية "موسم العز" جعله الحب الذي نما في قلبه يتنازل عن حقه بنجلاً أمام رغبته في تحقيق سعادتها حتى ولو لم تكن معه. في مسرحية "الليل والقنديل" سحر هولو بصوت منتورة وفتن بطيبتها وبرقتها مما جعله يعيد إليها (كيس الغلة) ويحمل (القنديل الكبير) بيديه إلى قمة (ضهر الشير) على الرغم مما يسببه ذلك من ضرر له (حسب ما كان يعتقد).

ولكن البياع الذي يخفق قلبه للحب لا يريد لهذا الخفق أن يقيده وهو يعترف لها بذلك (جَرَبْتُ أَهْرُبُ.. قَبْلَ مَا أَعْرِفُ.. وَيَصِيرُ بَدِّي حَبِّكَ وَبَقِيَّ.. وَ مَا عَوْدُ عَ دُرُوبِ الْفَرَحِ إِشْتَقِي).

أما (حلا) فيطالبها حبُّها الكبير البريء الصادق للبياع الرقيق الكريم بتكرار المحاولة عن طريق أغنية تأتيه فيها عارضة رفقته على دروبه وأينما تأخذه الريح. تكاد (حلا) هنا تستسلم لحبها فتترك أهل الحارة بهمومهم ومشاكلهم وهي التي كانت حتى اللحظة تكرّس نفسها وقلوبها وعقلها لهواجس أهلها وحياتهم، ولكنها جدلية الضعف البشري والقوة الإنسانية!!

هذه الجدلية، التي تكررت صورها عند شخصيات مسرحيتنا، نراها في أدب الروائي السوري الكبير (حنا مينه) وعند شخصياته والذي وصفه الأديب السوري الراحل سعيد حورانية بخير من عرف "ماهية الضعف البشري والقوة الإنسانية". ويمتليء الأدب الرحباني بصور ومواقف تؤكد الصراع الداخلي في شخصياتنا المتأرجحة في فضاءات العام والخاص، والشكل والمضمون، والذاتي والموضوعي.

ويأبى البياع إلا أن تكون آخر كلمات الوداع مفعمة بروح التفاؤل والثقة بالمستقبل (لا بدّ ما أرجع).. و (من بعد ما تكون الدني كلاسوا طارت على سطوحا دواليب الهوا) !

تمهد الأوركسترا للأغنية الهادئة المشوبة بحزن ورجاء تؤديها صباح لوحدها بمصاحبة لحنية من الوترية غاية في العذوبة:

حلا: / سَفَرْنِي مَعَكَ عَلَى هَالطَّرَقَات  
سَفَرْنِي مَعَكَ بِهَالنَّسَّاحَات  
وِينْ مَا الرِّيحْ بَتَاخْذُكَ وَبَتَشْلَحْكَ وَبَتِزْرَعَكَ  
سَفَرْنِي مَعَكَ / (٢)

....

ليس من قبيل الصدفة أن يختار المؤلف هذه اللعبة البسيطة، ذات القرص الزويعي الذي يدور باتجاه واحد، مادة تَمَحُورَ كل العمل الدرامي شكلاً وجوهراً حوله.. الإنسان بطبيعته يعشق الدوران ويرتاح له.. حركة الأرض الدورانية حول نفسها التي تعطينا الإحساس بالزمن فنبرمج نهارنا وليلنا على أساسها وحركة الأرض حول الشمس التي تبرمج لنا حياتنا وسنواتنا وفصولها ومواسمها ومواعيد أفراننا وطقوس تقاليدنا وقناعاتنا.. وبالحركة الدورانية ننتقل من مكان إلى مكان فنشعر بأن العالم مُلْكَنًا.. الأطفال يسعدون عندما يمسكهم الكبار من أيديهم ويدورون بهم في نفس المكان لأنهم يشعرون بالتححرر من الجاذبية وبالطيران في مدى واسع.. ولذلك يحب الأطفال، والكبار أحياناً، الألعاب من هذا النوع في مدن الملاهي والألعاب البسيطة المشابهة.

وكما تدور الإليكترونات حول نواة المادة فتكُون الذرة وتكُون وتكون الأرض، تدور الأجرام في الكون الفسيح حول نفسها وحول بعضها بإيقاعات كونية أخّاذة تسحر الألباب ويتسع بمداهها البعيد العقلُ البشري الطامح دوماً إلى معرفة المجهول وقهر الألغاز وتفسير العالم بقوة أساسها بسيط كبساطة دولاّب الهوا، وهو الإدراك المادي للأشياء والوعي.